الباب السابع والعشرون

قصة الفقهاء المأسورين ، وأحوالهم فى مراكش

وقد تقدم أن دخول الفقهاء أولاد سيد محمود فى مدينة حمراء مراكش [1] هو فتح أبواب البلاء لها . وذكر فى الخبر أنهم أدركوا فيها أسارى النصارى ، يستخدمون يدخلون ويخرجون فيهم واحد ما رؤى قط منذ أمر منشرحًا ولا مبتسمًا إلا يوم دخول الفقهاء البلد ، فوافقوا به عند باب السور .

فلما رأته ضحك ، وفرح غاية الفرح فزالتْ عنه ما به من عبوسة الوجه وتكمش الحال ، فعجب الناسُ به ، وانتشر خبره فى البلد ، واتصل بالسلطان مولاى أحمد ، فأمر بسؤاله عن ذلك ، فقال : وكيف لا أفرح وقد تم مرادنا فى بلدكم هذا لأنا روينا عن أخبارنا أن خرابه دخول الملثمين فيه ، وهم هؤلاء الناس بالصفات التى وصفت لنا .

فأول ما بدأ فيه من البلاء على السلطان قيام مولاى نصر بن السلطان مولاى عبد الله ، فأجابه أهل الغرب كافة لمحبة والده فى قلوبهم ، وخاف منه مولاى أحمد خوفًا عظيمًا ، وخرج إلى برا بالمحلة الكبيرة المتينة فسرح الفقهاء المثقفين وعفى عنهم، فأمكنه الله منه وقتله وبعث بفرحه إلى بلاد السودان ، ثم ترادفت عليه المحن من كلِّ وجه ، حتى قيل إنه ندم على ما صدر منه لعلماء السودان .

ثم قام عليه ولده وقرة عينيه وولى عهده مولاى الشيخ فى مدينة فاس فجهز إليه الجيش بنفسه وقبضه . وأمر الباشا جودار أن يذهب به إلى مكناسة وسجنه فيها ورد البيعة لابنه أبى فارس . وأعلم جودار أن يذهب به إلى مكناسة وهو شقيق مولاى الشيخ المذكور ، ثم أطعمته السم زوجته عائشة بنت أبى بكر الشبانية أم ابنه مولاى زيدان ، وهما معه فى هذه الغيبة فى تين أكله هو وحفيدته ابنة الشيخ ، وهى صغيرة أكلتْ منه واحدًا كيفما بلعته فى الساعة طارتْ ونزلت على الأرض وماتت من حينها.

---

(١) مراكش : مدينة مغربية بناها المرابطون . ومعنى الكلمة باللهجة البربرية مراكش . أى : اجر بسرعة.

وتمكن السلطان فبادر بالخروج من مدينة فاس ورجع إلى مدينة حمراء مراكش ، ومات فى الطريق فى أواسط الربيع النبوى فى العام الثانى عشر بعد الألف ، وكتمه جودار عن الناس حتى بلغوا المدينة ، فدفن فيها وأنفذ وصيته فى بيعة مولاى أبى فارس فبايعوه .

وتولى السلطنة مولاى زيدان فى فاس بنفسه وبايع أهلها ، فقامت الفتنة بينهم فجهز الجيش إلى فاس لقتال مولاى زيدان ، وأمّر عليهم جودار فلما قرب إليه سمع أنه خرج بنفسه لقتالهم بعث رسولاً إلى مولاى أبى فارس ، وأخبره أن مولاى زيدان خرج بنفسه فى المحلة يقصدهم ولا يقدر هو محاربته ومطاردته قطعًا ، ويأمر بإطلاق مولاى الشيخ ليكون لهم أمير الجيش حتى يقاتلوه ، فأنعم له بذلك .

وبعث جودار فى تسريحه ، ثم بعد رجوع المرسول [١] من عند مولاى أبى فارس كتب ثانياً لجودار ، فقال له فيه : إذا ضربتَ بذلك السيف فرده فى غمده فوقع الكتاب فى يد مولاى الشيخ قبل أنْ يصل جودار فقرأه وفهم المراد بتلك الإشارة فاقتتلا وغلب مولاى زيدان وهرب إلى أرض سوس [٢] ورجع مولاى الشيخ إلى فاس .

وتأمّر فيها ثم جهز الجيش إلى مولاى أبى فارس فى مراكش لقتاله ، وأمّر عليها ابنه مولاى عبد الله الصغير فغلب أبا فارس وهرب إلى الجبال ، وتولى السلطنة لنفسه فى مراكش ولم يمكث فيها إلا عامًا وتسعة أشهر ، وكذلك مولاى أبوفارس لم يمكث فيها إلا عاماً وتسعة أشهر .

ولما تولى جاءته أمه وأمرته بقتل الشيوخ الكبار خدام جده أحمد ليهنأ فى تلك السلطنة وقتلهم جميعاً ، وهم إحدى عشر قائدًا منهم الباشا جودار وبعث برؤوسهم لوالدته فى فاس .

فحين رآهم انكسر قلبه فى أمر الدنيا وندم على السلطنة ، ثم خرج مولاى أبو فارس من الجبال وتوجه إلى فاس فسكن عند أخيه مولاى عبد الله الشيخ ، ثم احتال مولاى زيدان حتى جهز الجيش إلى مولاى عبد الله فى مراكش وأمَّر عليهم ابن عمه مولاى أبو حسون . ويقال له بوشعير أيضاً فقاتله وغلبه وهرب إلى فاس عند والدته مولاى الشيخ فقتل عمه أبا فارس ، وتغلب على والده المذكور ، فاغتم لذلك

---

(١) المرسول : الرسول أو الشخص الذى يحمل الرسالة .

(٢) السوس : إقليم فى جنوب المغرب ، ويجرى فيه نهر السوس .

وهرب إلى النصارى وسكن عندهم ثم باع لهم العرائش ، وهو موضع نفيس عزيز جداً فى مملكة المسلمين ، فتولاها النصارى وهى فى أيديهم إلى الآن ، وبقى عندهم إلى أنْ مات .

وقيل : مات مرتدًا والعياذ بالله . وبقى مولاى عبد الله فى فاس يشتغل بالأعمال السيئات من الظلم والجور وغيرها حتى حجروه وأمسكوا على يديه إلى أن مات ، فقاموا بأنفسهم بلا وال ولا أمير سوى الأشياخ فى كلِّ حَوْمة إلى الآن .

وأما مولاى أبو حسون فتولى السلطنة لنفسه فى مراكش نحو أربعين يوماً فوجد أهلها فى غاية من ضيق الغلاء ، فأخرج لهم من هرايا [1] السلطنة من كل صنف من الطعام المدخر ونشرها لهم ، ولذلك سُمى بو الشعير ، ثم جاء مولاى زيدان فقتله وتولى السلطة .

ومن ذلك البلاء حدوث الطاعون والوباء فيها ولم تكُنْ قبل ، كاد أهلها أنْ يفنى أصلاً و فصلاً من اتصالها ودوامها . وهلك فيها منْ لا يُحصى عدده إلا الله سبحانه وتعالى ، ولم نفك تلك المدينة عنها إلى هلم جرًا .

(ثورة السيد أحمد فى واد السور)

وقد أدركت أن الأمير السلطان مولاى أحمد أنشأ بناء الجامع ووضعه وضعاً عجيباً، فسمى بذلك جامع الهناء ، ثم شغل عنه بترادف تلك المحن ولم يكمله حتى توفى منحى جامع الهناء ، ثم قيام سيد أحمد بن عبد الله السورى وهى الفتنة العظيمة والمحنة الجسيمة التى شتتت الشمل وبتتْ الأصل والفصل ، بعثه الله تعالى عليهم عذاباً وانتقاماً ولحكمه السابق توفية وإتماماً ، فقام من واد السعد فى شهر محرم الحرام فاتح عام التاسع عشر بعد الألف فى يوم عاشوراء .

واد السور بلد بين توات وتفلات ، فأجاب دعوته أخلاطٌ من الخلق فتوجه إلى الأمير مولاى زيدان من مراكش بعدما بعث إليه رسالات نظماً ونثراً . يذكر فيها الكبائر التى يرتكبونها فى دين الله تعالى ، وتغيير سنة نبيه ﷺ .

فخرج إليه الأمير مولاى زيدان فطارد معه ، والرصاص ينزل على أصحابه ولا يؤثر فيهم شيئاً ، فهزم عسكره وهرب إلى الجبال ، فدخل أصحابه المدينة

---

(١) هرايا : مخازن السلطان .

وأفسدوا فيها ودخلوا فى دور السلطان وأكلوا جميع ما فيها ، وأبرزوا الحرائر [1] من الخدور ، وجردوهن وفعلوا بهنّ الفواحش مثل ما فعل محمود بن زرقون بديار أولاد سيد محمود سواء بسواء جزاءًا وفاقاً ، سبحان الملك القادر الذى لا يغفل عمّا يعمل الظالمون .

ورفعوا جميع ما فى الديار من الأموال والأمتعة والأثاث ونشروها فى الآفاق والأقطار ، وجاء كثير منها فى مدينة تنبكت لرسم التجارة فتبايعها الناسُ فيهم وتملكوها ودخل منها متاع فى دار أولاد سيد محمود لينظروها من زينها وحُسن تركيبها ، فكان ذلك عظيم الاعتبار لأولى الأبصار من فعل الرب انفرد بالقوة والاقتدار .

(ترجمة الأمير أحمد الذهبى)

تنبيه : أما الأمير السلطان مولاى أحمد الذهبى فهو ابن مولاى محمد الشيخ مولاى محمد أمغار الشريف بن عبد الرحمن . وأمه جارية اسمها لِلْ عودة أبوها فلانى الشريف أمغار جاء من المشرق . وأم أرض سوس المغرب فنزل فيها ، وسكن وتلقاه أهلها بالتعظيم والإكرام والتشريف والاحترام ، وفى آخر الحال ولوه أمرهم ، فكان أميرًا ومدته ثلاثة وثلاثون شهراً .

وتوفى وخلف من الأولاد ثلاثة : مولاى أحمد الأعرج وهو الأكبر ، ومولاى محمد الشيخ ومولاى عبد الله تفرع من مولاى محمد الشيخ مولاى عبد المالك ، ومولاى أحمد الذهبى . وتفرع من مولاى عبد الله أولاد كثير منهم مولاى محمد ، ومولاى ناصر .

أما مولاى أحمد الأعرج فكان أميرًا فى مدينة حمراء مراكش ، ثم سعى بينه وبين أخيه محمد الشيخ النمامون ، وقال له أنه يطلب ملكه فكان فتنة بينهما حتى اقتتلا ، فغلبه مولاى محمد الشيخ ، وثقفه إلى أنْ مات .

وبقى مولاى محمد الشيخ فى تلك السلطنة ، إلى أنْ توفى فخلفه فيها أخوه مولاى عبد الله ، ومكث فيها سبعة عشر عاماً ، فجاء صواباً لأهل الغرب [2] وأحبوه كثيراً ، فنحَّى أولاد أخيه إلى أطراف المملكة وكلّموه فى ذلك ، فقال لهم : أريد لكم الحياة وطول البقاء ، وإذا سكنتم بين أولادى يقتلونكم وبقوْا على تلك الحال حتى مات .

---

(١) حرائر : السيدات الأحرار ، غير الإماء .

(٢) الغرب : المقصود به المغرب العربى .

فخلفه ابنه مولاى محمد المسلوخ فى السلطنة ، ومكث فيها عامًا وتسعة أشهر ، فغضب أولاد عمه عبد المالك ، وأحمد الذهبى فتوجّها إلى أمير المؤمنين العثمانى صاحب القسطنطين [١] وطلب منه عبد المالك أنْ يمده بالقوة من الجيش حتى يصيب ملك مراكش فساعفه لمراده وأمده من جيش الأتراك ما يقده [٢] فغلب ابن مولاى محمد بن مولاى عبد الله وهرب إلى النصارى .

فتولّى مولاى عبد المالك السلطنةَ ومكث فيها عامًا وتسعة أشهر أيضاً ، وبدل أحوال أسلافه بأحوال الأتراك حتى فى زى الملابس وفى المطاعم ، وتسمية أرباب الرتب من الخدم ، فصار جميع أحواله فى سلطنته أحوال الأتراك واستعمل فى الأسلحة المدافع على أنواعها ، وفى الملابس القفاطين والفرجيات [٣] ، وشد خوخ وغيرها ، وفيه تسمية الخدام الباشوطات ، وضباشيات ، والولداش وغيرها .

(موقعة وادى المخازن)

فطلب مولاى عبد الله من سلطان النصارى أنْ يمده بالجيش لقتال مولاى عبد المالك فأجابه إلى ذلك . وجعل عليهم ابنه فتوجهوا إليهم . وفى يوم التقاء العسكرين كان من قدر الله تعالى موت ثلاثة نفر : مولاى محمد ، ومولاى عبد المالك ، وابن سلطان النصارى بلا علاج ولا قتال ، فكان من عجائب الاتفاق ذلك تقدير العزيز العليم .

وبقى الجيشان يتقاتلان ، ولا علم عند أحد من الجيشين بوفاة السلطان مولاى عبد المالك ، لأنه القائد محمد طايع كتمه ، ولم يُبده لأحد . يحى إلى بيت عوده الذى هو فيه ويكلمه ويشكر له من رجاله من شاء ، ويولى إليهم ويقول لهم السلطان يسلم ويراكم وما أنتم عليه ويشكركم ويدعو لكم ، حتى هزموه جيش النصارى ، فولوا مُدبرين .

فلما أظهر وفاءه هرب مولاى أحمد الذهبى واختفى خوفاً من أنْ يقتلوه ، فعزم الأتراك على تولية مولاى إسماعيل بن مولاى عبد المالك فلم يقبل ذلك أهلُ مراكش، فجيء بمولاى أحمد أينما كان فى الساعة فولوه ، فكان مولاى أحمد

---

(١) القسطنطين : المقصود بها القسطنطينية ، والتى عُرفت باسم استانبول .

(٢) يقده : يعضده ويساعده .

(٣) الفرجيات : هى العباءات المفتوحة .

أميرًا حينئذ ، ثم شرع فى قتل قواد أخيه الكبير لبغض سبق له فيهم من أفعالهم منهم القائد الدغالى ، والقائد رضوان ، والقائد جعفر ، والقائد على الجنونى إلا القائد جودار ، والقائد محمد طايع ، ولكن سجنه اثنى عشر عامًا سجن ثقافى فى جنان ، وله فيها كل شيء من أنواع الخير والنِّعم ، ثم سرحه وصرفه إلى السودان باشا ، ومكث هو فى تلك الإمرة سبعة وعشرين عامًا ونصف .

فخرج فيها عجائب وغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع الأشياء والهمة العالية والسعادة الدنيوية ومواتاة الليالى والأيام ، حتى قال : إنه ما هَمَّ بشيء قط إلا يأتيه وفق ما أراد ، بل فوق ما نوى . ثم توفى فى أوائل عام اثنى عشر بعد الألف ، فاضطربتْ الدولة ورجعتْ القهقرى إلى هلم جرَا .